



4 ديسمبر 2014

إضافة إلى وصية الله عز وجل لخبر خلقه بعبادته حتى يأتيه اليقين- الموت- كانت وصيته لسائر الأنبياء صلوات ربنا وسلامه عليهم : ومنهم عيسى عليه السلام { وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا } [1] وأيقن عيسى عليه السلام ديمومة متابعتة لقومه بدوام بقائه بين أظهرهم " وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " [2]، ولما كانت النفس البشرية تميل إلى حب استمرار ودوام الخير ، وكان في عرف الناس دوام واستمرار واستمرار ارتفاع السماء وانسباط الأرض ، كان ذلك مدخلا لحث الناس على عمل البر والتاهيل لنيل رضوان الله في جنته ، وبالمقابل في تنفير الناس من المعاصي وندور الناس من استمرار ودوام البؤس والشقاء أشعر العصاة - ولا سيما المردة الأشقياء - بدوام العذاب بدوام السماء والأرض " فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَعُوا فِيهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا رَفِيزٌ وَسَهَيْقٌ \* خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رُبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ \* وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِيهِ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رُبُّكَ عَمَلَاءٌ عَمَرُوا مَجْدُودٌ " [3] ولكن نعيم الجنة دائم لا نغاذ ولا زوال له ، ولذا لما قَالَ لَبِيدٌ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ تَاطِلٌ ، قَالَ عُثْمَانُ: صَدَقْتَ. قَالَ (لَبِيدٌ) وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَخَالَةَ رَائِلٌ قَالَ عُثْمَانُ: كَذَبْتَ، نَعِيمُ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ". ونصديق ذلك " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَطَلُّهَا نِلٌّ كَغُفَى الَّذِينَ اتَّقَوْا " [4]

وفى مشروعية استدامة أعمال البر وشعب الإيمان وأركان الإسلام قال تعالى: "وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا (الدين: الطاعة والإخلاص. و" واصبًا" معناه دائما، قال الفراء، حكاة الجوهري. وَصَبَ الشَّيْءُ يَصِيبُ وَصُوبًا، أَي دَامَ. وَوَصَبَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَمْرِ إِذَا وَاطَّبَ عَلَيْهِ. وَالْمَعْنَى: طَاعَةُ اللَّهِ وَاجِبَةٌ أَبَدًا. وَمِمَّنْ قَالَ وَاصِبًا دَائِمًا: الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالصَّخَالُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ " أي دائم. [5] وأوصب القوم على الشيء، إذا نابروا عليه. [6]

وقد استقر في أذهان الأمة - ولا سيما فقهاؤها وعلمائها - أن من أوجه التشريع : السنة وهي ما داوم وواطى عليه صفوة الخلق ؛ وهي فوق الأدب جاء في بدائع الشرائع : وَالْعَزْقُ بَيْنَ السُّنَّةِ، وَالْأَدَبُ أَنَّ السُّنَّةَ مَا، وَاطَّبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَنْزُكْ إِلَّا مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ لِمَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي،، وَالْأَدَبُ مَا فَعَلَهُ مَرَّةً، أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَلَمْ يُوَاطِبْ عَلَيْهِ. [7] وفي السيرة والدعوة الفردية أو الجمعية ؛ والمداومة عليها حتى بلوغ أهدافها وغايتها : وَاللَّهُ لَوْ وَصَّعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُطَهَّرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ " [8]

ومن روائع سلفنا الصالح في المداومة على الصالحات بمختلف أنواعها: ؛ أن عائشة رضي الله عنها كانت تصلي ثمان ركعات من الصلوة ثم تقول: لو نشر لي أبواي ما تركتها، وبلال رضي الله عنه كان يحافظ على ركعتي الوضوء، وسعيد بن المسيب رحمه الله ما فاتته تكبيرة الإحرام خمسين سنة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: أَوْصَانِي خَلِيلِي بِنَلَاثٍ، لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةٌ الصُّحَى، وَتَوْمٍ عَلَى وَثْرٍ" أخرجه البخاري في: 19 كتاب التهجد: 33 باب صلاة الصلوة في الحضر

عَنْ تَافِعٍ قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ عُمَرَ اسْتَلَمَ الْحَجَرَ ثُمَّ قَبَّلَ يَدَهُ، وَقَالَ: «مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ» [9]

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «أَدِيمُوا النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ» [10] وأصل مشروعية إدامة النظر في المصحف التوجيه النبوي «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالِدِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهْوٌ أَشَدُّ تَعْصَبًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلَيْهَا» [11] (تعاهدوا القرآن) واطبوا عليه بالتلاوة والحفظ ، وفي المداومة على مكارم الأخلاق ، ودوام المباحدة لمساوئها ، والحذر من معاودة منالها في صحيح مسلم «إِنَّ الصَّدْقَ يَرْبُّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِنَّ الْكُذْبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكُذْبَ، حَتَّى يُكْتَبَ كَذَابًا» [12] وبشرى استمرار تقديم العبد العون المستطاع لخلق الله استدرار معية وعون الله "والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم" ، كَانَ الصَّدِيقُ يَخْلُبُ لِلْحَيِّ أَغْنَامَهُمْ، فَلَمَّا اسْتُخْلِيفَ، قَالَتْ جَارِيَتُهُ مِنْهُمْ: الْآنَ لَا يَخْلُبُهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يُعْتَرِنِي مَا دَخَلْتُ فِيهِ عَنْ نَبِيِّ كُنْتُ أَفْعَلُهُ، أَوْ كَمَا قَالَ. وَإِنَّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بِالْجَلَابِ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ لَا تَخْلُبُ النِّسَاءَ مِنْهُمْ، وَكَانُوا يَسْتَفِيحُونَ ذَلِكَ، فَكَانَ الرَّجَالُ إِذَا عَابُوا، احْتَجَّ النِّسَاءُ إِلَى مَنْ يَخْلُبُ لَهُنَّ. وَقَدْ رُوِيَ «عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِعَقُومٍ: لَا تَسْغُوبِي حَلَبَ امْرَأَةٍ» .

وَكَانَ عَمْرٌ يَتَعَاهَدُ الْأَزْمَالَ بِسْتَفِي لَهْنِ الْمَاءِ بِاللَّيْلِ، وَرَأَهُ طَلَحَةُ بِاللَّيْلِ يَدْخُلُ بَيْتَ امْرَأَةٍ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا طَلَحَةُ تَهَارًا، فَإِذَا هِيَ عَجُوزٌ عَمِيَاءٌ مُفْعَدَةٌ، فَسَأَلَهَا: مَا بَصُنْعُ هَذَا الرَّجُلِ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: هَذَا مُدْ كَذَا وَكَذَا يَتَعَاهَدُنِي بِأَيْبِي بِمَا يُضْلِحُنِي، وَيُخْرِجُ عَنِّي الْأَدَى، فَقَالَ طَلَحَةُ: تَجَلِّكَ أُمَّكَ طَلَحَةُ، عَتَرَاتٍ عَمْرٌ تَتَّبِعُ؟ [13] !

وهذان الزوجان المباركان عليُّ بن أبي طالبٍ، وقاطمةٌ - رضي الله عنهما - سألا النبي صلوات الله وسلامه عليه خادماً، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ؟ نُسَبِّحِينَ اللَّهَ عِنْدَ مَتَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُحَمِّدِينَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللَّهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ» ثُمَّ قَالَ سُفْيَانٌ: إِخْدَاهُنَّ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ، فَمَا تَرَكْتُهُمَا بَعْدُ، قِيلَ: وَلَا لَيْلَةٌ صَقِينٌ؟ قَالَ: وَلَا لَيْلَةٌ صَقِينٌ [14]

ومن مناقب الإمام أحمد رحمه الله، أن عاصم بن عاصم البيهقي، يقول: بت ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل. وفي سير أعلام النبلاء الكثير والكثير من هذه النماذج.

[1] مريم : 31

[2] المائدة : 117

[3] هود:106-108

[4] الرعد:35

[5] تفسير القرطبي (10/ 114)

[6] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 233)

[7] بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (1/ 24)

[8] سيرة ابن هشام ت السفا (1/ 266)

[9] مسند أحمد مخرجا (10/ 115) صحيح مسلم كتاب الحج باب استيخاب استيخاب الرُّكَّتَيْنِ التَّمَايِينِ فِي الطَّوَافِ دُونَ الرُّكَّتَيْنِ الْأَخْرَيْنِ

[10] مصنف عبد الرزاق الصنعاني (3/ 362)

[11] صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب استيذكار القرآن وتعهده أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب فضائل القرآن وما يتعلق به

[12] صحيح مسلم كتاب البرِّ والصلَّةِ والأَدَابِ باب فُجِحِ الْكُذْبِ وَحُسْنِ الصَّدْقِ وَقُضِيهِ

[13] جامع العلوم والحكم ت الأرنبوط (2/ 295)

[14] صحيح البخاري كتاب التَّقَاتِ باب خَادِمِ الْمَرْأَةِ صحيح مسلم كتاب الذِّكْرِ وَالذُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ باب التَّسْبِيحِ أَوَّلِ النَّهَارِ وَعِنْدَ النَّوْمِ